جدية المسؤولية الحزبية

أحب ان أنبه الى ناحية في هذا الحديث القصير وهي جدية مسؤولية الاعضاء[1]. تعرفون اننا نلح دوماً على اهمية القاعدة في الحزب ونعتبرها الضمانة الكبرى لمبادىء الحزب. ولكن يُخشى ان تفهم هذه النظرة الى القاعدة فهماً سطحياً ومنحرفاً، فيُعتقد بأن واجب القاعدة ينتهي عند اعطاء الرأي، وان قاعدة الحزب هي هذا المجموع الكبير من الاعضاء، من شتى الانواع، من المثقفين ومن الطليعة الشعبية التي تجتمع في مناسبات وتنتقد وتحتج وتستنكر وتعارض وتستفسر لماذا حدث الشيء الفلاني ولماذا اتبع الحزب السياسة الفلانية ولماذا تصرف هذا الشخص على هذه الطريقة الخ . .

ان اقتصار دور القاعدة على هذه المهمة لا يختلف كثيراً عن اقتصارها على التأييد والموافقة، اي ان قاعدة لاتعمل في الحزب الا القول في بعض المناسبات: ان تقول لا وتقول كيف وتقول لماذا؟ هي تقريباً مثل القاعدة التي تُجمع بين الحين والآخر لتقول نعم كالقطيع. الا ان المرض في الحالة الاولى مكتوم ومبطّن وغير ظاهر في حين انه في الحالة الثانية مكشوف. فالقاعدة التي تستخدم كالقطيع مرضها واضح وهي قاعدة مزيفة مضللة وبالتالي يكون الحكم عليها سهلاً فاما ان تُستبدل او تُصلح. اما المرض الذي يأخذ الشكل السلبي والاحتجاج فانه يوهم بأنه حالة سليمة وبأنه ليس مرضاً وانما هو غاية الصحة طالما ان المظاهر تدل على الوعي والتدقيق والوجدان الحزبي الذي يستوضح دائماً او يناقش ويدقق. وكلتا الحالتين مرض، فما هي الحالة السليمة للقاعدة السليمة؟

---

(١) حديث القي في الاجتماع الحزبي لطلبة كلية الآداب بتاريخ ١٣ نيسان ١٩٥٥.

الحالة السليمة هي ان يكون قول القاعدة بقدر عملها، وان تكون حقوقها بمقدار مسؤولياتها فلا تطالب الا بمقدار ما تؤدي من خدمة وعمل، ولا تحتج ولا تعترض الا بمقدار ما تؤيد وتعمل وتنفذ يومياً.

هذا معناه اولاً ان هذه القاعدة لاتتلهى بالنقد تلهياً ولا تتشفى تشفياً، وانما تنتقد عن غيرة حزبية صادقة، لأن وراء نقدها عملاً ومساهمة وتضحيات. فمن حقها، ملء حقها، ان تستفسر وان تعرف اذا كانت جهودها وتضحياتها مصبوبة في الطريق التي تحقق الغاية من هذه التضحيات، أم انها ستذهب عبثاً او لأغراض خاصة غير سليمة وغير قومية. وثانياً لأن الاعتراض والانتقاد عندما يصدران نتيجة الممارسة يكونان جديين ويكونان صائبين. فالذي يمارس العمل يعرف بالتجربة والمعاناة ماذا يجب ان يصنع في مثل هذه الحالة. وعندما يعترض لايعترض اعتراضاً نظرياً بل يدرك ان هناك خطأ قد وقع.

فأنتم ايها الاخوان، معاذ الله ان نعتبركم تلك القاعدة السلبية اللاهية غير الجدية وغير المؤمنة، والتي تكتفي بالقول والنقد السلبي للتلهي او للتشفي. نحن نعرف ونؤمن بأنكم شباب مملوؤن غيرة على بلادكم وقضية شعبكم، وانتم مرتبطون روحياً بمبادىء حزبكم، والى حد بعيد مرتبطون فكرياً بهذه المبادىء، والى حد اقل وابسط مرتبطون عملياً. وواجبكم ان يصبح ارتباطكم العملي في مستوى ارتباطكم الروحي والفكري. ولا أقول هذا فقط عن وضعكم الحاضر وانتم ما زلتم في وضع خاص، وضع الدراسة الذي لايؤهل لحمل مسؤولية الحزب بكل نواحيها، فنحن نعرف ذلك ونقدرّه، ولكن الحزب لا يخاطب اعضاءه بالنسبة الى اليوم الحاضر فقط، الحزب يفترض ان اعضاءه دخلوا اليه ليبقوا فيه نهائياً وليربطوا مصيرهم بمصيره، وانهم بعد ان يجتازوا وضعاً خاصاً معيناً سيستقبلون وضعاً آخر قد يكون مستقلاً، وفي اي وضع وجدوا فهم مطالبون دوماً بأن يجعلوا الواجب الحزبي في رأس الواجبات. فسواء اعتبرنا وضعكم الحاضر او نظرنا الى وضعكم المقبل، عليكم ان تعرفوا ان المسؤولية الحزبية تتطلب جدية اكثر بكثير مما الفتم واعتدتم حتى الآن.

انكم كثيراً ما تتمسكون بعقائدية الحزب، وتظهرون الحرص عليها والخوف من ان

ينالها اي تشويه. وطبيعي باعتباركم الجزء المثقف من الحزب، ان تشعروا أكثر من غيركم بهذا التجاوب بينكم وبين العقيدة، وان تظهروا عليها مثل هذه الغيرة. ولكن في واقع الامر ما هي العقيدة؟ هل هي المبادىء المسطورة سواء أكانت مختصرة ام مفصلة وسواء أكانت واضحة ام نصف واضحة؟ هل العقيدة شيء مكتوب وشيء للمعرفة والدرس، يستوعبه الذهن فقط؟ وهل هي امتحان مدرسي كأمتحانكم؟ هل العقيدة هي هذا الشيء السطحي الذهني؟ وهل هي أن تحفظوا ما يملى عليكم وان تقارنوا بين ما حفظتم وبين ما يطبق بعيداً عن مشاركتكم في الحزب، فتجدون احياناً ان التطبيق بعيد عن الدرس الذي حفظتم؟

من تحصيل الحاصل ان نقول ان العقيدة هي ابعد ما تكون عن الدرس المحفوظ. إنها وان كانت لابد ان تمر بطريق الذهن حتى تُفهم، غير ان الذهن ليس الا طريقاً، ليس الا ممراً لا أكثر. وواجب هذا الممر أن ينقلها الى الشعور والى الاخلاق والحيوية بكاملها، فتتحرك شخصية الانسان: تتحرك روحه، تتحرك عاطفته واخلاقيته فيسجل مواقف جدية. ورب اناس يفقدون هذا الممر الذي يتوفر لكم انتم، اي ليس لهم ثقافة. رب أناس لايفكرون في العقيدة لأنهم لايملكون وسائل المعرفة الكافية ليجعلوا من العقيدة فكراً. ولكنهم يستطيعون ان ينقلوها الى الاخلاق والعاطفة والحيوية كلها ويستطيعون ان يجسدوها عملياً في مواقف حية وجدية. وهؤلاء قد يكونون أكثر عقائدية من المثقفين.

أتيت بهذا المثال المتطرف لكي أنبه تنبيهاً عنيفاً الى ان الذهن وحده غير مجد، مع اقتناعي بأن لاعقيدة جدية دون تفكير، وان عقيدة الفئات غير الواعية لا يمكن ان تكون جدية ولا يمكن ان تكون مضمونة متينة وبالتالي لايمكن ان تخلص من الشوائب. الا انه يجدر بالمثقفين الا يغتروا والا يناموا على ثقة الثقافة.

اذ لا فائدة من المعرفة عندما تكون خاتمة المطاف، وعندما تصبح غاية في حد ذاتها. فالمعرفة جسر الى العمل الجدي، واذا لم تكن كذلك فهي أفيون للتخدير وهي واسطة للغرور ولتبرير الكسل والخمول. فنحن في وسطنا هذا الذي نعيش فيه ونصمم على تغييره من اساسه، نجد أن لهذا الوسط قوانين، وان فيه قوى واقعية لا

يمكن تجاهلها، وان له اساليب. فالعقيدة يجب ان تنزل الى الارض لكي تستطيع التأثير في هذا الوسط وهي لم توجد الا للتأثير فيه. فإذا نظرنا الى العقيدة هذه النظرة عندها لايمكن ان نقبل بأن تبقى العقيدة في عالم من الغيوم والسحب، لا هي في السماء ولا هي في الارض. العقيدة وبالتالي العقائديون يجب ان تكون اقدامهم على الارض، ولكن يجب ان تكون نفوسهم حرة طليقة وان تكون عيونهم شاخصة الى مثل أعلى. لايمكن ان تتغلب العقيدة وان يتغلب العقائديون على فساد الاوضاع، على القوى الاجتماعية والسياسية المزيفة ـ وهي قوى محسوسة في وسطنا ـ الا اذا تجسدت في عمل واقعي. لا تكتسب العقيدة مبررها الوحيد ـ وهي الحرية ـ الا اذا استطاعت ان توازن وتعادل القوى الواقعية الفاسدة الراهنة، واكثر من ذلك ان تتفوق عليها وتنتصر. ولا يمكن ان ننتصر على القوى الفاسدة بالكلام، بترديد الشعارات، بالاستنكار، بالاحتجاج الخ... نتمكن من مجابهة القوى الفاسدة ومن التغلب عليها بالعمل الايجابي، بعمل واقعي على الارض، وليس في سحب الالفاظ والافكار الغائمة وترديد الشعارات.

لولا ذلك لما جعلنا حزبنا منذ اليوم الأول لتأسيسه حزباً سياسياً. وما زلت أذكر ان الكثيرين ممن يغارون على الحزب او يظهرون الغيرة عليه أخذوا يتساءلون عندما ظهر الحزب، لماذا أخترتم هذا الطريق وانتم جماعة مثقفة خيّرة؟ لماذا لاتكونون حركة لنشر الفكر والتبشير؟ بل ربما كان بعض الاعضاء الذين دخلوا الحزب في أول عهده قد اخذوا بهذا الوهم او هذا الخطأ. ولقد أجبنا المتسائلين بأن الصفة السياسية التي حرصنا على ان تكون أصيلة في الحزب منذ اول تأسيسه، منذ ولادته، هي امتحان لجديته ولواقعيته وهي درء لشتى الاخطار التي تتعرض لها الفئة المثقفة كالخيالية، والمثالية، والجبن الذي يتستر بالمبادىء، وفقدان الرجولة.

هذا الحزب حزب سياسي ولكنه ليس كسائر الاحزاب السياسية. وانه حزب عقائدي وله أهداف يسعى الى تحقيقها وهي الوحدة والحرية والاشتراكية. وهو حزب انقلابي لايساوم ولا يقبل بالاصلاح الجزئي، بل سيناضل الى آخر الطريق. انها ـ الصفة السياسية ـ امتحان للبرهان على أن هذه العقيدة ليست أحلام مراهقين وخيالات

لمعلمي المدارس وضعوها ليلهوا بها انفسهم في ساعات الأرق، بل فيها من الحيوية ما يكفي لتدخل هذا الواقع الفاسد دون تردد وان تغيّره بالصبر والمرونة حتى تصل الى تغيير هذا الواقع تماماً فلا يبقى الا واقعها الجديد وبذلك تتحقق العقيدة.

فاذا كنتم الآن تضمكم صفوف المدارس، وتأتون من شتى المدن والنواحي لتجمعكم الجامعة، وليس لكم في الوقت الحاضر أرض تطأونها وتركزون عليها أقدامكم كما يجب، فأنتم مطالبون في أقرب فرصة ومنذ الآن ـ لأنكم لم تنفصلوا نهائياً عن الوسط الذي أتى كل واحد منكم منه ـ بأن تعتبروا ان عملكم يجب ان يكون متجسداً، وان يكون على الارض، في وسط معين، في قرية، في حي، في بلد، في هيئة، مع جماعة، مع طبقة، مع بشر أحياء، وان تدخلوا هذا الوسط المملوء بالمصالح الخاصة، بالنفاق والكذب، بالجبن والانهزامية، بالجهل وبلبلة الأفكار، بالعجز: يجب ان تدخلوا اليه كل في ناحيته المتيسرة له، وان تكافحوا وان تنقلوا حزبكم الكبير الى هذا الوسط الضيق الذي أنتم موجودون فيه. انتم مطالبون بالتالي بأن تمثلوا الحزب بأفكاره وتوجيهاته، بأسلوبه ونضاله وان تلمسوا يوماً بعد يوم تقدماً محسوساً بأنكم غيّرتم شيئاً ولم تتغيروا، واذا تغيرتم فإلى أحسن، ان تزدادوا جرأة ومتانة ومرونة. أما أن تبقوا في جوٍ ليس له حدود وليس له ملامح وليس له أرض يمشي عليها الا هذه الاجتماعات في المكتب، وهذا الانفعال العاطفي كالذي يسكر ويثمل بالعقيدة وترداد شعاراتها والفاظها المبهمة، كل هذا لايؤدي الى نتائج جدية.

لا أنكر ولا أحد ينكر بأن لكم كطلاب مهمة خطيرة، وقد قمتم بها في أكثر الاحيان وستقومون بها. وسيظل الطلاب عنصراً خطيراً من عناصر حركتنا القومية... بأن تقفوا المواقف القومية ضد الاستعمار والطغيان واستغلال الشعب. هذا دور له أهميته ولا أحد ينتقص منه. ولكن هل تريدون الا يكون لكم الا هذه الصفة، الصفة المؤقتة، وانه عندما تنتهي دراستكم تفقدون كل مؤهل للعمل الحزبي؟ فالذي يلتحق بوظيفة ينسى حزبه، والذي ينتقل الى الحياة العملية ينسى حزبه ايضاً الخ.. ابحثوا منذ الآن ـ اذا كنتم جديرين بمعنى الكلمة ـ عن الوسائل التي تتضمن استمرار حزبيتكم وبصورة جدية، لأن الصفة الطلابية، بصراحة، لاتدل على قوة الحزب.

فالحزب لايحتاج الى قوة مبدأية كبيرة وقوة تنظيمية كبيرة لكي يكسب الطلاب، اذ انهم مهيأون لكي يكونوا مع الحزب. ولكن الحزب يبرهن على أنه فاعل وخلاق ومبدع ومربّ عندما يكسب الاشخاص في غير هذه الحالة السهلة العارضة المؤقتة.

أيها الاخوان

الخلاصة انكم مطالبون الآن وفي المستقبل: الآن في هذه الحالة المؤقتة بأن تتحملوا مسؤوليتكم الحزبية بجد أكثر، ليكون لمواقفكم العقائدية ولمناقشاتكم ومطالباتكم للقيادة وللحزب وزن ومعنى، وليكون فيها نضج وخبرة يجب ان تتحملوا المسؤوليات بجد أكثر بأن تبادروا الى العمل فاعلين لامنفعلين محرِكين لامحرَكين، ان تقبلوا بدافع ذاتي وان تملؤوا كل الفراغ الموجود في الحزب، وهو فراغ كبير، عندها يكون لانتقادكم وزن وتأثير. اذ ما الفائدة من الاعتراض والصراخ بأن المبادىء لاتُراعى ولا تُحترم وان ثمة أنحراف الخ . . . هذه اشياء قد تنجح في التخريب والبلبلة وأشاعة جو التشاؤم واليأس ولكنها لاتخيف منحرفاً ولا تخيف اشخاصاً ليست لهم عقيدتكم. ولكن الذي يخيف والذي يرعب والذي يضع حداً لكل انحراف ولكل تهاون او تفريط هو ان تكون قاعدة الحزب قائمة بواجباتها متسابقة الى ملء الفراغ متصلة بالشعب متفننة في خلق الاساليب التي تنمّي النضال. عندها يصبح جو الحزب جواً عقائدياً صحيحاً منتجاً ويصبح الذين يخالفون مبادىء الحزب في وحشة وغربة وذعر، وعندها اما ان ينصاعوا او ان يخرجوا. فحمايتكم للمبادىء تكون بالعمل وبتحمل المسؤولية الآن وفي المستقبل عندما تتركون الدراسة.

يجب ان تعرفوا الحقيقة وهي ان خدمة مبادىء الحزب، هذه المبادىء العامة، تكون في تنفيذ العمل الخاص ولا أقصد بذلك عمل الافراد لأنفسهم بل اقصد التنفيذ الجزئي. ان مبادىء الوحدة والحرية والاشتراكية لاتتحقق بالتظاهر والهتاف، من قبل المئات والالوف لهذه الشعارات، وانما تتحقق عندما يعمل العضو الفلاني في قريته مع خمسة أو عشرين من أهل القرية عملاً منظماً متواصلاً يوصل الى نتيجة، فيبدل فيهم التفكير والعاطفة وقوة النضال.

اني لواثق أن في نفوس الشباب كل الامكانيات وكل الاستعداد لتفهم هذه الدعوة الى الجدية، اذ لاانقلابية الا في مستوى من العمل جديّ يصل الى حد التضحية.

نيسان ١٩٥٥